رؤى

منهاج اللغة الإنجليزية الفلسطيني.. ماذا حدث حتى الآن؟!

محمود الطميزي

تقديم

في العام 2000، تم تطبيق أول منهاج فلسطيني يوحد الضفة الغربية مع قطاع غزة من حيث النظام التعليمي، ومنذ ذلك الحين والمنهاج الفلسطيني يتعرض للعديد من الانتقادات والاعتراضات، بين من يرى فيه منهاجاً صعباً وكمياً وفوق مستوى الطلاب ويقوم على التقليد والتلقين، ومن يرى فيه منهاجاً عصرياً يواكب التطور وينمي ملكة التفكير الإبداعي.

ومن واقع تخصصي سأتطرق في هذه المقالة إلى منهاج اللغة الإنجليزية، وسأحاول الإجابة عن العديد من التساؤلات، انطلاقاً من خبرتي كمعلم لغة إنجليزية، ثم مدير مدرسة، وأخيراً مشرف تربوي.

الآن أتذكر بدايات مشواري في التعليم، حين كنت معلم لغة إنجليزية في إحدى مدارس محافظة الخليل، في تلك السنوات كان المنهاج الأردني (PETRA) ما زال يطبق في المدارس الفلسطينية، ففي ذلك الوقت تم بذل جهود كبيرة من أجل الارتقاء بمستوى الطلاب في مادة اللغة الإنجليزية، ولكن المستوى بشكل عام ظل غير مرض لكثير من المراقبين: معلمين ومشرفين ومجتمعاً محلياً، فالطالبً كان يتعلم اللغة الإنجليزية من الخامس حتى الثاني عشر؛ أي بواقع ثماني سنوات، وبعدها يتخرج من الثانوية العامة وفي جعبته مشاكل عديدة في مادة اللغة الإنجليزية يتضح أثرها عندما يلتحق الطالب بالتعليم الجامعي، فعلى الرغم من أن منهاج بترا في حينه أخذ بعين الاعتبار أساليب تدريس اللغة الإنجليزية الحديثة، فإنه كان يفتقر إلى القدر الكافي من الدروس التي تركز وتهتم بحياتنا اليومية، والتي تساعد على تقوية قدرة الطلاب على التعامل مع المواقف الحياتية المختلفة، ناهيك عن أن منهاج بترا لم يكن يعكس الخصوصية الفلسطينية، الأمر الذي كرس نوعاً من الغربة مع هذه المناهج. إن هذه الإشكاليات وضعت التربويين أمام ضرورات تغيير مناهج اللغة الإنجليزية، وبخاصة أن المرحلة التربوية في حينه كانت تتهيأ لمناهج فلسطينية جديدة.

الدعوة إلى منهاج جديد

في تلك السنوات، وبناء على ما أشرت إليه سابقاً؛ كنت من دعاة تصميم منهاج فلسطيني جديد في مادة اللغة الإنجليزية يواكب التطور العلمي والتربوي، ويراعي احتياجات الطلبة، وخصوصية المجتمع الفلسطيني. وتزامنت هذه الدعوة مع تسلم السلطة الفلسطينية لشؤون التربية والتعليم في فلسطين.

في كل يوم كنا نتساءل عن أسباب الضعف في مادة اللغة الإنجليزية، وعن طرائق معالجة هذه المشكلة. وتوالت الأيام والسنوات وبقي العجز يرافقنا، وقد ارتأى عدد من المسؤولين التربويين في حينه أن معالجة هذا الضعف تتم عن طريق:

- تطبيق منهاج فلسطيني جديد يتجاوز إشكاليات منهج بترا الأردني.
- تدريس اللغة الإنجليزية بدءاً من الصف الأول الأساسي.

لقد سررت لهذه التوجهات الجديدة، وكانت فرحتي كبيرة عندما تم تطبيق منهاج اللغة الانجليزية الجديد العام 2000/ 2001، على أمل أن يؤدي ذلك إلى تحسن طلابنا في مادة اللغة الإنجليزية. تزامن تطبيق المنهاج الفلسطيني مع كوني مديراً لإحدى المدارس التي تضم الصف الأول الأساسي، الأمر الذي منحني الفرصة الكافية للاطّلاع على إيجابيات وسلبيات تدريس اللغة الإنجليزية للصف الأول.

منذ الأيام الأولى لبدء التجربة، لوحظ الأثر السلبي لتعليم اللغة الإنجليزية على مادة اللغة العربية، حيث لاحظنا أن بعض التلاميذ أصبحوا يكتبون العربية من اليسار إلى اليمين كما في اللغة الإنجليزية، ولاحظنا أيضاً أن الطلاب يخلطون بين الأرقام والحروف في اللغتين العربية والإنجليزية. في حينه كان لدي تصور أن هذه الإشكاليات المستجدة ستنتهي مع الزمن بالتوازي مع تطوير المعلم لأساليبه وازدياد الخبرة لدية.

والآن، وبعد حوالي عشر سنوات من تطبيق المنهاج الفلسطيني، ومن خلال زياراتي للمدارس كمشرف تربوي، ما زلت أسمع وألحظ المشاكل نفسها التي ظهرت قبل عشر سنوات.

على الرغم من اشتمال المنهاج الفلسطيني على بعض الجوانب المرتبطة بثقافتنا وبالخصوصية الفلسطينية، فإنه ما زال بحاجة إلى مزيد من التعديلات من حذف وإضافة، ليشتمل على المزيد من المواقف العملية التي توظف اللغة في جوانب تفيد الطالب في حياته اليومية، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بواقعة وبالعالم من حوله.

منهاج جديد وإشكاليات جديدة

سوف أشير الآن، ومن موقعي كمشرف تربوي، إلى بعض المشكلات الإجرائية فيما يتعلق بمنهاج اللغة الإنجليزية، وحتى يكون الكلام أكثر واقعية سأورد العديد من الملاحظات التي حصلتُ عليها من المعلمين في الميدان، على سبيل المثال لا الحصر، يذكر المعلمون:

- إن هناك خلطاً بين أصوات الحروف وأسمائها، ما يتطلب منح المعلم عند تدريس صوت الحرف المزيد من الوقت قبل تدريس اسم الحرف.
- فيما يتعلق بمنهاج الثالث الأساسي، يجمع المعلمون الذين زرتهم في مواقع عملهم أن هناك فجوة كبيرة مقارنة مع منهاج الصف الثاني، الأمر الذي يقتضي تخصيص المزيد من الحصص لتدريس مادة الصف الثالث، وكذلك بقية الصفوف.
- إن الطريقة التي صمم فيها منهاج اللغة الإنجليزية تتطلب أن تكون أعداد الطلاب في غرفة الصف أقل بكثير مما هي عليه الآن، ما يعني أن طول المنهاج وكثرة عدد الطلاب يشكلان عبئاً ثقيلاً على كاهل المعلم، ما ساهم إلى حد كبير بتدني مستوى الطلاب.
- طول المنهاج وكثرة التمارين في كتاب (WORK BOOK)، يتطلبان تخصيص المزيد من الحصص لتغطية المادة، علماً أن هناك من يرى أن أغلب هذه التمارين وضعت كواجب بيتي، هذا الأمر سليم ومعقول، ولكن بعد تحقيق المتطلبات القبلية لتكليف الطلاب بحل الواجب، ففي الوقت الذي ينهي المعلم درسه من كتاب الطالب يجد أن الكثير من الطلاب لم يفهموا الدرس، ما يجبره على البدء بحل بعض التمارين من كتاب التدريبات لترسيخ الفكرة وإفهام الطلاب، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الكثير من طلابنا لا يلتزمون بحل الواجبات البيتية على الرغم من متابعة المعلم والمدير، علماً أن الكثير من الطلاب يحضرون الحلول الجاهزة من الأصدقاء أو من الكتب المساندة، وعليه يمكنني القول –وبكل أسف– إن الصف أصبح المكان الوحيد للتعلم لدى معظم طلابنا، وبخاصة في ظل غياب الدور الفاعل للأهل، وأيضاً غياب أشكال التعليم اللاصفي.

ومما لا شك فيه، أن غالبية الأساليب المتبعة في تدريس اللغة الإنجليزية من قبل العديد من المعلمين، لا تصلح لتعليم هذه اللغة ولا تساعد المتعلمين على استخدام هذه اللغة في الحياة، الأمر الذي يتطلب التشديد على تطبيق أساليب جديدة ومناسبة في التعليم، وأيضاً في التقييم؛ لأن غايات الامتحانات الحالية، لا تساعد على اكتساب مهارات التحدث واستخدام اللغة في التواصل اليومي، ولأنها تعتمد على الاختبارات التحريرية فقط، وبالتالي لا تقيس مدى تمكن الطالب من استخدام مهارة التحدث، والقراءة، واللفظ، وعلى هذا الأساس فهناك ضرورة ماسة لإعادة تبني طرائق التقييم المبنية على المشافهة والارتجال، إضافة إلى ما هو متبع حالياً.

إذاً، في ظل هذا المنهاج، ما زلنا نسمع يومياً التذمر من قبل الطلاب والمعلمين والأهالي لطول المنهاج وصعوبته. فبعد حوالي عشر سنوات من تطبيق هذا المنهاج الفلسطيني، لم نرَ أي تقدم أو تحسن على طلبتنا في اللغة الإنجليزية.

إن النتائج التي نلمسها في المدارس هذه الأيام محط صدمة للجميع، حيث أن طلابنا على أرض الواقع يعانون من ضعف شديد في مادة اللغة الإنجليزية، فمثلاً العديد من طلابنا حتى في الصفوف العليا، لا يستطيعون التعريف عن أنفسهم بالإنجليزية، أو تركيب جمل مفيدة عن أي شيء يختارونه هم، دون تقييد من قبل المعلم. أما فيما يتعلق بالكتابة فالأمر أكثر سوءاً.

خلاصة القول إن وضع طلابنا اليوم ليس أفضل من وضع أولئك الذين تعلموا اللغة الإنجليزية وفق المناهج الأردنية من الصف الخامس الأساسي. بل على العكس من ذلك، فقد أشارت إحدى الدراسات (Shehadeh, 2006) التي أجريت على الصف السادس الذي تعلم اللغة الإنجليزية من الصف الأول وفق المنهاج الفلسطيني، والثامن الذي تعلم اللغة الإنجليزية من الصف الخامس وفق المنهاج الأردني، أن الطلبة الذين تعلموا المنهاج الأردني تفوقوا على نظرائهم ممن تعلموا وفق المنهاج الفلسطيني، حيث تفوق طلبة الصف الثامن الذين تعلموا الإنجليزية مدة 3 سنوات على طلبة السادس الذين تعلموا الإنجليزية مدة 6 سنوات.

وبالطبع، فهذا لا يعني أن المنهاج الأردني السابق أفضل من الفلسطيني الحالي، بل أريد أن أشير إلى أن ما عكسته هذه الدراسة، وما هو موجود على أرض الواقع، يشير إلى أن الهدف الذي وضع من أجله المنهاج الفلسطيني الجديد لم يتحقق حتى الآن، حيث كانت الوزارة تطمح من خلال تغيير المناهج والبدء في تعليم اللغة الإنجليزية من الصف الأول؛ إلى الرقي بمستوى طلبتنا الأكاديمي، وهذا لم يتحقق. فعلى الرغم من الحديث عن العديد من الخطط سواء العلاجية أم الإنعاشية، لم نصل حتى الآن إلى المستوى الجيد أو حتى المقبول. إن هذا الإخفاق ساهم فيه أكثر من جانب منها:

1. طول منهاج اللغة الإنجليزية في معظم الصفوف وثقله، الأمر الذي جعل من الصعب جداً أن ينهي المعلم المنهاج المقرر في وقته، ما اضطر العديد منهم إلى التعجل في تدريس المادة أو ترك العديد من الوحدات أو الدروس وفق مزاجه واجتهاداته.
2. الضعف المتراكم لدى الطلاب، ما دفع بعض المعلمين إلى التدريس دون مستوى المنهاج محاولاً علاج ضعفهم وتأخرهم الأكاديمي، وذلك بخفض سقف توقعاته والنزول إلى مستوى الطلاب، بدلاً من دفعهم باتجاه تحقيق أهداف المادة والرقي بمستواهم.
3. طريقة الإشراف الحالية، التي تحتاج إلى إعادة نظر وتطوير، لتبنى على أسس مختلفة عما هي عليه الآن، وذلك لثبوت عدم جدواها، على أمل أن تساهم في تحقيق الأهداف التربوية المرجوة.
4. طريقة بعض المعلمين التقليدية في التدريس، الذين ما زالوا يدرسون بطريقة تختلف إلى حد كبير عما يتطلبه المنهاج الذي بني ليدرس بطرق وأساليب حديثة.
5. عدم توظيف بعض المعلمين الوسائل التعليمية في تدريس مادة اللغة الإنجليزية.
6. الاختبارات المعدة من قبل المعلمين: فكثير من هذه الاختبارات تركز على جوانب معينة من اللغة، وتهمل أخرى مثل الاستماع والمحادثة على سبيل المثال.
7. عدم تدريس بعض المعلمين لجوانب مهمة من مادة اللغة الإنجليزية لاعتقادهم بأنها غير مهمة للطلاب، وذلك حسب مزاجهم وأهوائهم الشخصية.
8. إخفاق الطلاب المتراكم في مادة اللغة الإنجليزية وأساليب بعض المعلمين العقيمة في التدريس، أدى إلى ضعف أو حتى انعدام الدافعية لدى العديد من طلابنا، وتكون اتجاهات سلبية نحو اللغة الإنجليزية.
9. اكتظاظ غالبية الصفوف بالطلبة، وعدم قدرة المعلم على التعامل مع جميع الطلبة في مثل هذه الأوضاع، وبخاصة أن المنهاج الفلسطيني مصمم ليدرس في كثير من الحصص من خلال الأزواج والمجموعات ولعب الأدوار والدراما والتمثيل.

وبناء على ما سبق، لا بد من دق ناقوس الخطر، والعمل الفوري والجاد، لإحداث تغيير وتعديل في هذه المناهج الفلسطينية بما يتوافق واحتياجات الطلبة وخصوصيات المجتمع. وكذلك لا بد من إعادة النظر في تدريس اللغة الإنجليزية من الصف الأول الأساسي. فما هو موجود على أرض الواقع، لم يشر إلى تحسن الطلبة بعد تطبيق المنهاج الفلسطيني، علماً أن هذا الاستنتاج يحتاج إلى دراسات علمية أخرى للبت فيه نهائياً. وعليه، فإنني أناشد الوزارة إجراء دراسة واسعة تهدف إلى التعرف إلى جدوى تعليم اللغة الإنجليزية من الصف الأول. وأنا حالياً بصدد إجراء دراسة تجريبية على طلبة الصفين التاسع (9 سنوات إنجليزي) والصف العاشر (5 سنوات إنجليزي) لملاحظة جدوى تدريس اللغة الإنجليزية من الصف الأول. فإذا ما اتخذ القرار لإجراء التغيير أو التعديل، لا بد لنا من إجراء دراسة شاملة للخيارات، وجمع المعلومات حول كل خيار، ودراسة الإيجابيات والسلبيات، وتفحص منطقية كل خيار، وإجراء التقويم المناسب بغية اختيار الأفضل. فعند اتخاذ القرار لا بد من أن نجيب على العديد من الأسئلة منها:

- ما الشيء الذي يجعل هذا القرار ضرورياً؟
- ما هي الخيارات المتاحة؟
- ما هي العواقب المحتملة المترتبة على كل واحد من الخيارات؟
- ما أهمية هذه العواقب أو المترتبة؟
- ما الخيار الأفضل في ضوء العواقب المترتبة؟

إشارات لا بد منها

إذا كان هدف التربية هو إعداد إنسان قادر على التعامل مع العالم من حوله، فإن أي تغيير في المنهاج الحالي يجب أن ينطلق من هذا الهدف، إنني أعتقد -بناء على تجربتي في التعليم والإدارة والإشراف- أن التعليم يجب أن يتأسس على احتياجات الطالب بما يخدمه كفرد يعيش في المجتمع، وبناء عليه فإن المناهج والمقررات الدراسية يجب أن تبنى بطريقة تخدم هذا التوجه.

أتساءل ما الذي يمنع أن يكون الاهتمام بتوظيف القصة في تعليم اللغة الإنجليزية؟! ليس بالطريقة الموجودة حالياً، حيث القصص المضمنة في المناهج مجردة من سياقاتها الحياتية وغريبة عن الطالب، بل أن تسرد قصص ذات علاقة وثيقة بالحياة الفلسطينية.

أذكر حين كنت معلماً، كنت أسرد لهم بعض القصص مثل قصة (أبي في سوق الخضار) يتم فيها الحوار بين البائع والمشتري، واستعرض خلالها مسميات بعض أنواع الخضار، والفواكه، وكيفية السؤال عن الأسعار، والمساومة، وكذلك في المطعم، والمشفى، والمدرسة، والجامعة، وغيرها، هذا مجرد جانب من الجوانب العملية والواقعية، وهناك العديد من الأمثلة والجوانب التي تخدم هذا التوجه. في السياق نفسه، أعتقد أن تعلم اللغة من خلال سياقات درامية واقعية أو متخيلة يعالج كثير من الإشكاليات التي أشرنا إليها سابقاً.

اللغة الإنجليزية أو أي لغة أخرى يمكن تعلمها بالحوار، وليس من خلال الترجمة الحرفية بالعربية لكل شيء كما يحدث مع كثير من المعلمين، فكثيراً ما تعقد مسابقات يعبر فيها التلاميذ عن أنفسهم بالرسم، وكتابة القصص، فلماذا لا يكون هذا التوجه لتعزيز الكتابة باللغة الإنجليزية من خلال دفع الطلاب إلى الكتابة معبرين عن تجاربهم الشخصية، وعما يحبون أن يكتبوا عنه لا عما نحدده نحن لهم.

وأخيراً، لا بد أن يراعي أي تغيير إدخال طريقة التعلم الإلكتروني بالمدارس، على أمل أن تتغير نظرة التلميذ والمعلم إلى التعلم، وأن يساعد المناخ المدرسي على ذلك، وهذا يتطلب تدريب المعلمين على استخدام الكمبيوتر، بما يخدم طرق التعلم، وتهيئة البيئة المدرسية لاستخدام التعلم الإلكتروني.

د. محمود جبريل الطميزي
مشرف تربوي، مديرية تربية جنوب الخليل